الإنسان وعلاقته بالكون
في التصور القرآني

محمد السيد الجليند
أستاذ الفلسفة بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

تمهيد:

إن الحضارات الإنسانية تستمد أصولها وأهدافها ومقاصدها في نظرتها للكون، من وجهة نظر الإنسان التي تحمل معها طابعه ولون ثقافته وعوامل بيئته الزمانية والمكانية. أما في الحضارة الإسلامية فإنها تستمد أصولها وغايتها ومقاصدها من الوحي المنزه عن التأثر بوجهات النظر الإنسانية المتعالي على عوامل الزمان والمكان.

وبالتالي فإن وظيفة الإنسان في الكون ليست مرتبطة بتحقيق غايته وأهدافه الشخصية بقدر ما هي مرتبطة بتحقيق أهداف الوحي ومقاصده من علاقة الإنسان بالكون.

إن أهداف الإنسان ومقاصده قد تكون قاصرة على تحقيق مطالبه هو ومقاصده هو، وأهوائه هو، حتى ولو كان ذلك على رقاب الآخرين ومقاصدهم، أما أهداف الوحي ومقاصده فهي تحقيق الخير لكل بني الإنسان.

وتوظيف الكون لصالح كل بني الإنسان، فأهداف الوحي ومقاصده عامة للإنسان من حيث هو إنسان مؤمنًا كان أو كافرًا. بخلاف المذاهب الفلسفية فإن مقاصدها خاصة وغاياتها قاصرة على اتباعها فقط.

ففي التصور الإسلامي نجد الإنسان مؤتمنا على هـذا الكـون، مكلفـا بعمارته، مطالبًا باكتشاف قوانينه كما هو مكلف بتوظيـف العلـم الكـوني والمعرفة حسب أوامر الوحي وليس حسب أهواء العلماء ومقاصدهم، يوظف الكون لتحقيق خير الإنسان عامة وليس لتحقيق جموح المهووسين، نعـم إن هناك فارقًا كبيرًا بين تصور الإسلام لأهداف المعرفة الكونيـة ومقاصـدها وأهداف العلماء ومقاصدها من المعرفة، ولعل الفارق يبدو واضحًا بين عالم يوظف علمه ومعرفته لصالح الإنسان وعمارة الكون، وعالم آخـر يوظـف علمه لتدمير الإنسان وخراب هذا الكون فالعالم الثاني يحقق بعلمـه أهدافـه الشخصية ومقاصده من المعرفة وتوظيفها أما العالم الأول فيحقـق أهـداف الوحي ومقاصده ليعم النفع بالكون لكل بني الإنسان.

والقرآن الكريم يربط في تناسق عجيب بين أركان المعرفـة الكونيـة ووظيفة الإنسان من جانب وبينه وبين الكون كموضوع للمعرفة من جانـب آخر، كما يربط بين هذين الركنين وأهداف المعرفة وغايتها من جانب ثالث، ليكتمل بذلك وحدة الموقف المعرفي في موضوعه، وفي غايته، وفي وسائله، ويكون الإنسان نفسه باعتباره سميعاً بصيراً عاقلاً ذاتا عارفة، وتتوحد بـه ومعه وسائل المعرفة وأدواتها، وباعتباره جزءاً من هذا العالم يكون هو نفسه موضوعًا للمعرفة، وفيه يتوحد الموقف المعرفي كله وبـه تتحقـق أهدافـه موضوع المعرفة، وبه تتحقق غاية المعرفة، فالموقف المعرفي كله يتوحد في الإنسان وبالإنسان ليقفز إلى الذهن مباشرة السؤال الأولى الذي لا جواب عنه إلا من نصوص الوحي وهو: من أين..... ولماذا..؟

- **الإنسان ومسئوليته عن الكون:**

أ- الكون الطبيعي:

لقد خلق الله الإنسان على نحو جعله قابلاً ومستعدًا للمعرفة، وهبه أدوات تحصيل المعرفة من الحواس والعقل، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] .

وكما خلق الإنسان على هذا النحو فقد وضعه أمام مسئوليته المباشرة عن حسن توظيف أدوات المعرفة وتحصيل المطلوب منها فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

ومن المفيد هنا أن نلاحظ عند قراءة الآيتين السابقتين من سورة النحل وسورة الإسراء نجد أن أدوات المعرفة التي ذكرت فيهما جاءت بنفس الترتيب (السمع. البصر. الفؤاد) وتكرر ذكر هذه الأدوات بنفس الترتيب في القرآن الكريم كثيرًا.

وحين نلاحظ وظائف هذه الأدوات ودورها في تحصيل المعرفة نجد أن حاستي السمع والبصر تتعلق وظائفهما بعالم الشهادة فقط، فأنت تسمع وتبصر ما هو موجود متعين في عالم الشهادة. أما الفؤاد فيتعدى هذا العالم الحسي إلى تحصيل العلاقات الكامنة بين الأشياء المحسوسة، بهدف إلى تحصيل المعارف الكلية، إلى معرفة الخصائص والطبائع أما حاستا السمع والبصر فيقتصر دورهما على تحصيل المعارف الجزئية الحسية الآنية اللحظية فقط، أما الفؤاد فيتجاوز في وظيفته كل المعارف الجزئية إلى المعارف الكلية كما يتجاوز المعارف الآنية اللحظية إلى الماضي والمستقبل. ويتعرف على الماضي كما يتصور المستقبل ويتخيله. وبذلك يستطيع الإنسان أن يجمع في أطراف الموقف المعرفي الزمن بعناصره الثلاثة الماضي

والحاضر والمستقبل، ومن هنا يستطيع أيضًا أن يستخلص من الموقف المعرفي الدرس المستفاد من الماضي ليضئ به الحاضر ويرسم به المستقبل لتتحقق غاية المعرفة وأهدافها المطلوبة.

ولقد وضع القرآن الكريم أمام الإنسان مجموعة من التساؤلات التي يتعلق بعضها بالكون الطبيعي، ويتعلق بعضها الآخر بالكون الاجتماعي، والتي ينبغي أن يشغل لإنسان نفسه بالتأمل فيها وإثارة التساؤل حولها؛ كيف. ولماذا؟ ويحاول البحث عن الإجابة عنها خلال توظيفه لأدوات المعرفة التي منحها الله له.

وخلال تأملنا لهذه التساؤلات القرآنية نجدها تتعلق بمواقف متنوعة يعيشها الإنسان في صباحه ومسائه، قد يتنبه المرء إلى بعضها فيقف أمامها متسائلاً متعجبًا، وقد يغيب عن بعضها الآخر فلا ينشغل بها ولا يفطن إليها، فيسوقها القرآن إليه في شكل سؤال يحتاج إلى إجابة لابد أن يشغل المرء بها نفسه، أن طرح هذه التساؤلات والانشغال بها تسهم إلى حد كبير في اكتمال الموقف المعرفي، بالكون وتقود الإنسان إلى تحقيق المقاصد والغايات الإلهية من الموقف المعرفي، لأنها تنبه الإنسان إلى النظر فيما حوله والتساؤل عما يشاهد من ظواهر كونية يتأملها بعقله ويتساءل حولها. كيف خلقت، لماذا خلقت ومن خلق ... ولماذا جاءت على هذا النحو من الوجود دون غيره، وما سر ارتباطها بما سبقها وما لحق بها من الظواهر ... الخ هذه التساؤلات والقرآن الكرم يسوق لنا هذه التساؤلات في صيغة الأمر الإلهي المباشر.

فكما أمر بالصلاة والزكاة والحج أمر كذلك بالنظر والتساؤل حول هذه الظواهر الكونية، ولا فرق عندي بين صيغة الأمر في الحالتين من حيث ضرورة وجود ما أمر به الوحي وتحصيله إلا من حيث إن الأمر بالصلاة

والزكاة يتعين على كل مسلم القيام به والأمر بالتساؤل هنا حول مظاهر الكون وظواهره يكفي في القيام به بعض من أهل الاختصاص والعلماء والباحثين فالأمر بالعبادات فرض عيني والأمر بالتساؤل فرض كفائي. لكن ذلك لا يعني عدم وجوده ولا يعني خلو المجتمع ممن ينهض بهذه المسئولية التي نسميها فرض كفاية.

وإذا كان الفرض العيني يتعين على كل فرد القيام به ويتعين مسئوليته عنه أمام الله، فإن الفرض الكفائي يتعين على مجموع الأمة القيام به، وتتعين مسئولية الأمة عنه أمام الله. وإذا كانت مسئولية الفرض العيني مسئولية شخصية فردية، فإن مسئولية فرض الكفاية مسئولية جماعية يتعين على شخص الحاكم والراعي أن يكلف من ينهض بها نيابة عن مجموع الأمة إذا لم يتقدم أحد للنهوض بها.

وتلك قضية على جانب كبير من الأهمية في النهوض بالأمة والترقي بها من مستوى الجهل إلى مستوى العلم، ذلك أن الأمر الإلهي بالنظر والتفكر قد تكرر وروده في القرآن بصيغ متعددة وأساليب مختلفة وحول قضايا متنوعة تناول عالم الشهادة بأنواعه المختلفة. وبدءًا من الأمر بالنظر في بدء الخلق وبدء خلق الإنسان وكيفية الخلق.

قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا، فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ [عبس: ٢٤: ٢٨].

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ

وَالتَّرَائِبِ، إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٥: ٨]....

﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧: ٢٠].

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ، وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ، وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ، رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦: ١١].

ومن اللافت للنظر في هذه الأوامر الإلهية وفي هذه التساؤلات أنها جاءت أحياناً في صبغة الأمر المباشر ﴿ قُلِ انظُرُواْ ﴾، وأحياناً في صيغة الاستفهام الانكارى الذي يفيد التعجب من عدم الانشغال بهذه التساؤلات ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا ﴾ مما يتضمن اللوم والعتاب وأحياناً يجيء في صيغة الأمر المؤكد باللام ليفيد الإلزام والإيجاب ﴿ فَلْيَنظُرِ..... ﴾.

ولا شك أن تعدد الصيغ وتنوعها حول هذه التساؤلات يشير إلى ضرورة الانشغال بها والاهتمام بها كجزء أساسي في تنوير الوعي بالكون وتثقيف العقل الجماعي للأمة وبناء الجسور التي يعبر خلالها الإنسان من رؤيته الحسية لعالم الشهادة إلى بناء رؤيته العقلية لما وراء عالم الشهادة. وهذا ركن أساسي في بناء الموقف المعرفي، أن يجعل عالم الشهادة منطلقاً له إلى عالم الغيب، أن يتخذ عالم الشهادة دليلاً ه لإثبات ما وراءه ومنهجه في ذلك هو طرح هذه التساؤلات القرآنية على العقل لينتقل من المحسوس إلى

اللامحسوس ومن الشهادة إلى الغيب في شكل تتوحد فيه الرؤيتان معًا الحسية والعقلية بحيث لا تنفصل إحداهما عن الأخرى، رؤية الحواس لعالم الشهادة وظواهره ومظاهره ورؤية العقل والفؤاد لما وراء عالم الشهادة، فلا يقتصر الموقف المعرفي على مجرد الرؤية الحسية للأشياء مجزأة منفصلاً بعضها عن بعض، بل لابد من الرؤية العقلية أيضًا لتجمع شتات المحسوسات في شكل كلي منظم دقيق ينبئ عن حكمة صانعه، ويدل على العناية الإلهية بالكون والقصد الغائي منه. وهذا لا يتأتى إلا بالمزاوجة بين رؤية الحواس ورؤية العقل معاً. ولعل هذا يفسر لنا السر وراء جمع القرآن بين الإدراك الحسي والإدراك العقلي معًا ولم يفصل بينهما أبدًا فجاء بذكر الفؤاد أو الأفئدة بعد السمع والبصر في كل موارد هذه الحواس في آيات الذكر الحكيم.

ب- الاجتماع البشري:

وكما أمر القرآن بالنظر في الكون الطبيعي والتساؤل حول بدء الخلق وأصله وكيفيته فقد أمر أيضاً بالنظر والتساؤل حول سنن الله الكونية وعن قوانين الاجتماع البشري وآثارها في تاريخ الأمم الماضية، وكيف قامت الممالك واستقرت، وكيف بادت وانحدرت وكيف ازدهرت الحضارة ولماذا انهارت وانكسرت.

وما سبب قيام الممالك واستقرارها، وما سبب انهيارها وزوالها ليأخذ المسلم من تاريخ الممالك درسًا وعبرة يستضئ بهما في استقرار حاضره وبناء مستقبله. ولقد نبه القرآن في آيات كثيرة إلى هذه القضية خلال ما قصه علينا من تاريخ الأمم الماضية.

قال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الروم، فاظر]

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

وتكرر الأمر بالنظر في عاقبة المكذبين، والمفسدين، والمجرمين، ليبين لنا القرآن الكرم أن الظلم والفساد والبغي في الأرض بغير الحق وتكذيب الرسل كل ذلك وما يترتب عليه من سلوك اجتماعي يتناقص مع أوامر الوحي كان سببًا في انهيار الممالك واندثار الحضارة، والعلاقة الثابتة بين استقرار الممالك وسيادة العدل والإنصاف مطردة لا تتخلف أبدًا فهي أشبه بالعلاقات السببية الكامنة في الكون الطبيعي فإذا ما وجد السبب حصلت النتائج سواء كان ذلك على مستوى الكون الطبيعي أم على مستوى الكون الاجتماعي.

قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [الكهف: ٥٩]، فربط سبحانه بين هلاك الأمم وانهيار الممالك والظلم، وكان ضياع العدل وسيادة الظلم سببًا طبيعيًا في انهيار الملك، ولك أن تتأمل معي أسباب انهيار الملك في تاريخ الأمم الماضية والحاضرة أيضًا وكيف نبه القرآن الكريم إليها وأشار إلى خطورة إهمالها أو غض الطرف عنها من قبل المسئولن. ومن أهم هذه الأسباب سيادة الظلم وضياع العدل. مما يترتب على ذلك ضياع الحقوق والأمانات ويأس الضعفاء وطمع الأقوياء وتفشي المحسوبية والوساطات وهذا أخطر ما تصاب به المجتمعات. ولذلك فقط ربط القرآن الكريم بين الظلم والإهلاك في أكثر من آية. قال تعالى:

﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ١٣].

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [الكهف: ٥٩].

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

وهذه إحدى السنن الكونية في الاجتماع البشري، وهي لا تتخلف أبـدًا. سنة الله ولن تجد الله تبديلاً. ولا يغيب عن الذهن أن السنن الكونية لا علاقة لها بالدين أو الثقافة. فمتى وجدت أسبابها وقعت النتائج، سواء كانت الأسباب في أمة كافرة أو أمة مسلمة. لأن أسباب استقرار الملك أو انهياره لا علاقـة له بدين ولا ثقافة. ولذلك كان من مواريث أمتنا أن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة، وهذا أمر ينبغـي أن يستقر في أذهان الجميع حتى إذا نظر المسلم المعاصر حوله في شرق البلاد وغربها فوجد بلاد أوربا وأمريكا قد استقرت فيها الممالك وازدهـرت فيهـا مظاهر العمران وسادت لغة العلم فلا يعتبر ذلك خروجًا عن السنن الإلهيـة في الكون، فهذا أمر طبيعي. حيث ساد العدل واختفى الظلم، وأصبح العـالم آمنًا في بيته، وآمنًا على عرضه، وآمنا على ماله، وكـان للإنسـان هنـاك قيمة، ولكلمة العلم وصـوت العـالم أثـرًا، وتلـك مؤشـرات الاسـتقرار والأمان.

وعلى العكس من ذلك لا ينبغي أن يعجب المرء إذا رأى التخلف والهلع النفسي والاضطراب الاجتماعي سائدًا في بلاد كثيرة من أوطان المسـلمين، فليس ذلك شيئًا غريبًا عن مسار السنن الكونية ولا هو شذوذ عن منطقهـا، حيث يسود الظلم والخسف، والتنكيل، والتصفية الجسدية أحيانًا لمـن يرفـع صوته في وجه الظالم ليقول له قف وارحم الرعاية من ظلمك.

وعليك أن تدور ببصرك وإن استطعت فببصيرتك لترى أين مكانة العلم ومكانه في بلاد المسلمين وأين نظيرها في بلاد غير المسلمين، وكـم ينفـق على البحث العلمي والعلماء في بلاد المسلمين، وغير بلاد المسلمين وسوف تجد نفسك بعد هذه المقارنة البسيطة موقنًا تمامًا أن سنة الله لا تتخلـف فـي

كونه أبدًا، وسوف تؤمن معي أن الله يقم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة، وهذه قانون عام له أثره الفعال في طبائع العمران البشري ازدهارًا أو انهيارًا، يستوي في ذلك المجتمع المؤمن والمجتمع الكافر على حد سواء، لأن سنن الله محايدة لا تجامل أحدًا.

ولم يكتف القرآن الكريم بالإشارة إلى هذا المبدأ فقط، وإنما أشار إلى كثر من المبادئ التي هي بمثابة القوانين الاجتماعية العامة. وإن شئت فقل هي أسباب تتعاون فيما بينها لتشكل مجموعة السنن الاجتماعية التي يترتب عليها استقرار الممالك أو انهيارها، وإذا كان مبدأ العدل يأتي في مقدمتها فهناك أيضًا مجموعة من الضوابط السلوكية التي تتعلق بالأفراد وعلاقتهم الاجتماعية بعضهم ببعض، مثل ظهور الفساد، وتفشي المنكر، واللامبالاة، وضياع رابطة الأخوة الدينية، وسيادة عيشة الترف والرفاهية التي تتحول على يد المترفين من مستوى الوسائل إلى مستوى الغايات والمقاصد، مما يترتب على ذلك من خلل في ترتيب الأولويات في المجتمع، حيث تتحول الوسائل إلى غايات ومقاصد، وبالتالي تتنافس الأفراد والمجتمعات في أمور لا يجوز التنافس فيها وتتناسى أموراً هي أولى بالتنافس والاهتمام وذلك سادت مظاهر الانحلال والفساد كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾ [الإسراء: ١٦].

هذه القوانين الاجتماعية وضعها القرآن الكريم أمام المسلم ليتأملها بعين البصيرة كما يتأمل القوانين الطبيعية تمامًا بعين البصر فكلاهما خاضع لقانون السببية، وكما أن الأسباب لا تتخلف عنها مسبباتها في الكون الطبيعي إلا عند حدوث المعجزة. فكذلك الأمر في الكون الاجتماعي. وإذا وجدت

أسباب انهيار الممالك كالظلم، والفساد، اللامبالاة، وتفشي المنكرات وضياع العلم وإهمال دور العلماء.. الخ، فلابد أن تتبع المسببات أسبابها وهذا ما حذر منه القرآن الكريم في أكثر من آية، وتكررت إليه الإشارة في أكثر من صيغة لتفيد كلها معنى التحذير من الغفلة عنها، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. وتكرر ذلك في القرآن كثيرًا، ومن له خبرة باللغة ودلالة هذه الصيغ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا.....﴾ يعلم تمامًا أهمية الإشارات القرآنية إلى اكتشاف السنن الكونية التي نبه إليها القرآن وأثرها في العمران البشري. ولكن للأسف الشديد لقد غفل المسلمون عن النظر في هذان النوعين من القوانين الكون الطبيعي، وقوانين الكون الاجتماعي. أو تغافلوا عنهما أو أريد لهم وبهم أن ينصرفوا عن ذلك...فكان واقعهم المتردي علميًا واجتماعيًا هو النتيجة الطبيعية لهذه الغفلة.

❁❁❁❁

علاقة الإنسان بالكون

والمقصود هنا هذا الكون بطرفيه، الكون الطبيعي والكون الاجتماعي، وكلاهما صفحة مفتوحة أمام العقل البشري يقرأ فيها ويقرأ منها على قدر استطاعته، يقرأ في العالم الأرضي كما يقرأ في العالم العلوى وما يحتويه هذا وذاك من مظاهر وظواهر فالكون كله خاضع لسلطات العقل قابل لأن يعرف، بل إنه يجود في كثير من الأحيان بإظهار أسراره والكشف عن قوانينه وعلى الإنسان أن يلاحظ ويتأمل وأن يربط بين الظواهر وأسبابها ليتعرف على العلاقات الكامنة بين ظواهر الكون والموقف الإنساني منها.

وفي التصور الإسلامي نجد أن هذا الكون موضوع المعرفة لم يخلق عبثًا، ولا مصادفة، وإنما خلق لتحقيق غاية مقصودة ووظائف منشودة. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾.

وهذه قضية حاسمة في الفرق بين التصور الإسلامي للمعرفة الكلية بالكون وغاياتها وأهدافها والتصور الفلسفي لها عند الماديين، فلا مجال في التصور الإسلامي للقول بالعبثية أو المصادفة، والكون كله من سمائه إلى أرضه ما علمناه منه وما لم نعلمه مظهر من مظاهر الحكمة والإتقان

والعلم. علم ذلك من علمه وجهله من جهله، إنه صنع الله الـذي اتقـن كـل شيء.

﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤].

وهذا عكس ما تجده لدى المدارس الفلسفية المادية.

فالكون عندهم ليس له غاية، ولا وظيفة، ولذلك كان القول بالعبثيـة أو المصادفة هو الجواب عن علة الخلق وسبب الوجود، وبالتالي فقـد قطعـوا العلاقة بين الكون وخالقه من جانب وبينه وبن غايته وأهدافه من جانب آخر، وأصبحت الحياة كلها مظهرًا من مظاهر العبث واللهو فلا غاية عندهم مـن خلق الكون ولا هدف مقصود وإنما هي أرحام تدفع وقبور تبلع كمـا قـال الدهريون.

وفي التصور الإسلامي تتجسد الغاية والمقاصـد وتنتفـي المصـادفة والعبثية، وفي القرآن الكريم نجد الإشارات المتكررة التي تلفت نظرنا إلـى وظائف هذا الكون وغاياته التي أمرنا الوحي بالكشف عنها والإيمـان بهـا، والعمل في ضوئها وبمقتضاها، والسير نحو تحقيق هـذه الوظـائف وتلـك الغايات وعدم التعارض معها أو العمل على عكس مقتضاها. ومن أهم هـذه الوظائف ما يلي:

- **الوظيفة الأولى:**

١- إن هذا الكون بطرفية الطبيعي والاجتماعي آية دالة على خالقـه، وكل جزئية منه تحمل في طياتها هذا المعنى. إنها آية دالة على أن لها خالقًا، فهي لم توجد من العدم، وهي لم تخلق نفسها كما قال سبحانه وتعـالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا

يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

ويؤكد القرآن الكريم في الكثير من الآيات على هذه الوظيفة وعلى أهميتها في التعامل مع الكون باعتبار أن الكون كله آية وبرهانا عمليا واقعيا على أن له خالقًا.

وعليك أن تقفْ معي أمام هذه الآيات متأملاً لتعرف أهمية هذه الوظيفة في دلالة الكون على خالقه قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ، لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣، ٣٤].

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨].

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ، وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥: ٩٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥-٦].

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٣، ٤].

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ، وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٦- ٦٩].

ولقد تكرر التذكير بهذه الآيات البينات في القرآن الكريم أحيانًا في صيغة الإخبار عنها نصا صريحًا كما في سورة الروم:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾

[الروم: ٢٠- ٢٥].

وأحيانًا يسوق هذه الآيات في صيغة الاستفهام التقريري.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا، وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا، وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ٦- ١٦].

وأحيانًا يأتي الاستفهام متضمنًا معنى السخرية والاستهزاء ممن أشرك أو أنكر هذه الآيات أو نسب الخلق إلى غير الخالق سبحانه فيسألهم عمن خلق هذه الآيات، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ، أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ، أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٠-٦٤].

وعليك أن تراجع آيات القرآن المكي الذي عني بتأسيس اليقين وبناء العقيدة وما ذكره من آيات بينات دالة كلها على خالقها سواء كانت هذه الآيات تتعلق بالآفاق أو بالأنفس وسواء كانت تتعلق بالكون الطبيعي وقانونه، أو بالكون الاجتماعي وسنن الله في قيامه أو انهياره. وكلها تؤكد أن هذا الكون آية، وكل جزئية منه آية وصدق الشاعر لبيد حين قال:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الخالق

وكما أرشدنا القرآن إلى التأمل في الكون الطبيعي وآيات الله فيه نبهنا كذلك إلى تأمل آيات الله في الكون الاجتماع وسنن الله في استقرار الملك فيه،

فكان يذكر القصة وما يحيط بها من ملابسات وعوامل الاستقرار أو الانهيار ثم يختمها بقوله إن في ذلك لآية... ولقد تكرر ذلك في القرآن كثيرًا ليفيد منه المسلمون ويعوا الدرس ويأخذوا العبرة كما قال سبحانه، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ [يوسف: ١١١]. وقال سبحانه: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]. فبالإضافة إلى تثبيت فؤاد (صلى الله عليه وسلم) كان على المسلمين أن يفقهوا الموعظة ويتذكروا سنة الله في الأمم الخالية ويجب على المسلم أن يراجع ما قصه القرآن الكريم من أحوال الأمم الماضية ليعلم يقينًا أن السنن ماضية في الكون الاجتماعي بنفس الدرجة التي تعمل بها في الكون الطبيعي، وكما أن النار سبب في الإحراق فكذلك الظلم والفساد سبب في انهيار الملك ولا فرق بين تحقق القانون هنا أو هناك إذا وجد المقتضي التام وارتفعت الموانع. وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

- **الوظيفة الثانية:**

٢- الكون مرآة تتجلي فيه صفات الخالق:

يرتبط بالوظيفة السابقة ارتباطًا مباشرًا أن هذا الكون وما يحتويه من آيات بينات دالة على خالقها. أنه في نفس الوقت مرآة تنعكس على صفحتها صفات الصانع، وتتجلي فيه آثار صفاته الإلهية فما أشبه الكون بطرفيه الطبيعي والاجتماعي بمعرض صناعي تظهر في أرجائه أنواع الصنعة الإلهية وتتجلى في أقطاره الأرضية وعوالمه العلوية صفات الحق سبحانه من العلم الذي تنكشف به دقائق هذا الكون وتتجلى غوامضه، ومن الإرادة الشاملة العامة، والقدرة المطلقة، والحكمة الباهرة التي تنبئ عنها كل جزئيات

هذا الكون صغيرة أو كبيرة ظاهرة وباطنة، وعلوية وسفلية.

نعم. إنه معرض للصنعة الإلهية بفتح أبوابه أمام العقل من خلال آياته، وللعقل أن يجول في أنحاء هذا المعرض يقرأ فيه ويقرأ منه على قدر استطاعته، وما يراه العقل في هذه الصنعة من مظاهر المعرفة والإحكام والقدر، فعليه أن يعلم أن هذه المظاهر مستمدة من صفات صانعها وكلما ازداد العقل قراءة في هذه الصنعة ازداد فقها بها، فقها لها وقربا من صانعها فيمتلئ قلبه شوقًا، وحبًا، ومعرفة به ويتولد في القلب خشية منه، وطلبًا للمزيد من العلم به والعلم منه كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾.

وحين تقرأ آيات القرآن الكريم تجد الحق سبحانه ينبهنا في كثير من الآيات إلى مظاهر صفات الخالق سبحانه التي تنعكس آثارها في مفردات هذا الكون، وخاصة تلك الآيات التي أقسم بها القرآن الكريم والتي تتجلى في كل واحدة منها آثار صفات الله الحق سبحانه من دقة، وإتقان، وإرادة، وقدرة، وعلم، وحكمة.

وعليك أن تراجع ما أقسم به القرآن الكريم من آيات الله في الآفاق أو آيات الأنفس، وتتأمل ما فيها من دلائل حكمته، وطلاقة قدرته، وشمول إرادته. قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ، وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ، وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الأنشقاق: ١٦-١٨].

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ، الْجَوَارِ الْكُنَّسِ، وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٥- ١٨].

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦].

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩].

وإذا كانت هذه الآيات قد صرح القرآن فيها بلفظ القسم فهناك آيات أخرى أقسم بها القرآن بدون تصريح بلفظ القسم وليست أقل دلالة على صفات الخالق من سابقتها، قال تعالى:﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا، وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ١: ٨].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى،وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: ١، ٣].

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ،النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١: ٣].

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١].

وهناك آيات أخرى نبهنا إليها القرآن الكريم على سبيل الإخبار عنها لنقرأ فيها حكمة الصانع وقدرته قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨: ٤٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥: ٩٧].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

والتذكير بهذه الآلاء الدالة على صفات الخالق سبحانه كثيرة الورود في القرآن الكريم ولم تقصد من ذكر هذه الآيات إلا أن نلفت الانتباه إلى هذه الوظيفة الكونية الغائبة عن العقول، إن كل جزئية في هذا العالم تحمل في دلالتها أثرًا من أثار صفات الخالق لها. واستجلاء هذه الآثار إحدى مهام العقل ووظيفته ولا سبيل للعقل إليها إلا إذا وقف أمامها متأملاً متعجبًا متسائلاً كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

فأنت إذا ألقيت سمعك أو قلبت ناظريك في العالم الذي تعيشه ترى فيه من العجائب ما يبهر العقول، فانظر مليًا في هذه الأرض التي جعلها الله مهادًا للإنسان، وجعلها كفاتا لحاجاته من الطعام والشراب يلقى فيها البذرة والحبة فتتغذى بماء واحد، وتربتها واحدة وتتنفس هواء واحدًا كما قال سبحانه: ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ﴾ [الرعد: ٤]، ومع وحدة الأصول والمصادر تختلف الألوان وتتنوع المذاقات.

فهذا ثمره حلو وذاك مر هذا حامض وذاك حار، فانظر كيف تتحد الأصول وتتنوع الثمار، وتختلف ألوانها فهذا لونه أبيض وذاك. أحمر أو أخضر كما قال سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]. ليقرأ فيها العقل طلاقة قدرة الخالق وكمال إرادته، كيف يتحول الماء العذب في جذوع هذه الثمار إلى مرارة في بعضها وحلاوة في بعضها الآخر، كيف يتم ذلك داخل هذا المصنع النباتي إلا

إذا كان الصانع مطلق الإرادة والقدرة يفعل ما يشاء وكيف يشاء، ولا يقولن أحد إن ذلك محكوم بطبيعة البذرة وخصائصها لأن ذلك من لغو الحديث فإن الذي طبع البذرة وخلقها على هذا النحو العجيب هو الذي جعلها مصنعا لهذه الثمار المتنوعة طعمًا ولونًا وشكلاً.

وإذا تأملت جسم الإنسان فإنك تقرأ فيه من آثار الحكمة والعلم ومن صفات الخالق ما يسعه وعاء عقلك وما غاب عنك أكثر وأكثر فالجسم غذاؤه واحد، وشرابه واحد، وهواؤه واحد، ولكن هذه المواد تتحول في جسم الإنسان إلى طاقات متنوعة الوظائف.

فكيف تتحول هذه المواد إلى طاقة باصرة في العين؟

وكيف تتحول إلى طاقة سامعه في الأذن؟

وكيف تتحول إلى طاقة هاضمة في المعدة؟

ثم كيف يتحول إلى طاقة عاقلة ومفكرة في بنية الإنسان؟

وكيف تتم عملية تصنيع الدم بمكوناته المختلفة... وكيف وكيف... ألا يقرأ العقل في هذا كله آثار الصفات الإلهية من الحكمة والعلم والقدرة.

ولقد أشار القدماء إلى بعض هذه المعاني كالإمام الأشعري في رسالة أهل الثغر وابن القيم في إغاثة اللهفان وابن رشد ف مناهج الأدلة ما بين ايجاز واطناب ثم جاءت الكشوف العلمية لتكشف الستار عن كثير من هذه الغوامض، وأظهرت الكثير من معالم الحكمة والتقدير الإلهي في مفردات هذا العالم، والتي نبه القرآن الكريم إلى كلياتها أحيانًا، وإلى مفرداتها أحيانًا أخرى، ولقد وقف العلماء المعاصرون أمام حشرة النحلة في حيرة كيف يتم تصنيعها للعسل وكيف يتحول غذاء النحل إلى هذا الشراب. متسائلين عن

أسرار صنعه وهو الشافي لكثير من الأمراض، ووضعوا الكثير من المؤلفات التي حملت معها عجبهم وإيمانهم بحكمة الصانع وإتقان الصنعة في هذه الحشرة الضئيلة، وكذلك الحيوان. كيف يتم تصنيع اللبن واستخراجه من بين فرس ودم سائغًا للشاربين.

إن هذه المشاهدات كلها تحمل معها آثار صانعها وصفاته من الرحمة، والعلم، والحكمة، والقدرة، والإرادة، مما يدل على أن الكون كله مظهر من مظاهر صفات الحق سبحانه

وكل هذه المشاهدات في النهاية تؤدي إلى إظهار العناية الإلهية بالمخلوق ورعايته، وينبغي استجلاء هذه المعاني من القرآن الكريم والتنبيه إليها والاهتمام بها وتربية النشء عليها وامتلاء قلوبهم بالإيمان بها، والاعتقاد فيها لأنها قطب الرحى في تثبيت قضية الإيمان في القلوب، إن مناهج الدراسة في المؤسسات التعليمية ينبغي أن تجعل من هذه القضية محورًا أساسيًا تربى عليها الشباب حتى ينشأ المرء عارفاً بربه من خلال تعرفه على دقائق صنعته في كل جزئيات هذا الكون، فيتعرف الطبيب والمهندس وعالم النبات والفلكي وعالم الحشرات، كل فيما يخصه على دقائق الصنعة التي هو بصددها ويستخرج ما فيها من دلائل القدرة والعلم والحكمة والقصد والغاية ليزداد إيمانًا على إيمانه إن كان مؤمنًا، وليعلم أن هذه المعاني لا يمكن أن تقع مصادفة وبلا قصد ولا غاية من الفاعل الخالق فيؤمن أن وراءها خالقًا قادرًا وليعلم أنها ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

إن محاربة الإلحاد لا يكفي فيها الوعظ والإرشاد واستعمال العبارات المسيلة للدموع، وإنما ينبغي أن يعيش المسلم لغة عصره وثقافته، فيتخذ من العلم سلاحًا يتزود به في مواجهة الإلحاد المتفشي في بؤر كثيرة ومستنقعات

عفنة لا سبيل إلى تطيرها من هذا المرض إلا بسلاح العلم ولغته، والسبيل إلى هذا هو أن تشتمل مناهج الدراسة في مؤسساتنا على هذا الزاد العلمي وأن يدرس الطلاب هذه العلوم بروح قرآنية تربط بين موضوعات هذه العلوم والغاية منها، وإنها لم تخلق عبثًا وأن تربط بينها وبين خالقها من جانب آخر، حتى لا يقع الشباب في أودية الضلال.

وكذلك فمن الضروري أن يقف الشباب على أن هذه المفردات الكونية تحمل معها آثار صفات خالقها فيتحول الكون كله أمام العالم والمتعلم إلى مرآة يقرأون على صفحتها دلائل قدرة الخالق وعلمه وحكمته وإرادته بالإضافة إلى كون ذلك كله آية دالة على الخالق سبحانه، وليس من الحكمة ولا من الصواب منهجيًا أن يدرس الطلاب هذه العلوم بروح إلحادية تقطع صلة الكون بخالقه وتقف بالطلاب عند مجرد اكتشاف الأسباب المادية دون أن يصلوا هذه الأسباب بالمسبب الأول وهو الله، ودون أن يشرحوا للطلاب أن هذه الأسباب ليست فاعلة ولا مؤثرة بذاتها وإنما هي فاعلة بفعل الله فيها، فهو الذي أودع فيها خاصية التأثر فكانت مؤثرة، وهو الذي جعل المسببات قابلة للأثر فكانت منفعلة بأسبابها، أما أن تدرس هذه العلوم الكونية بمعزل عن روح القرآن فإن ذلك عين العبث بعقول الأمة وضياع للناشئة في متاهات الحيرة وأودية الشكوك والشبهات، إن المنهج الذي تدرس به هذه العلوم الكونية في مؤسساتنا منهج غربي نشأ وتأسس على مبدأ قطع الصلة بين الكون وخالقه، وأن هذا الكون المادي ليس وراءه خالق نبحث عنه أو نؤمن به وأن محاولة البحث عن الخالق أو مجرد الحديث عنه لون من ألوان الخرافة والجهل، وليس وراء المادة والعلم ما ينبغي أن نتعلق به أو نشغل أنفسنا به، وقامت دراسة العلوم الكونية على هذا النحو من بتر الصلة بين

الكون والخالق، وعلى ذلك تأسس المنهج الغربي في دراسة الكون وعلومه، فلماذا الحرص على الأخذ بهذا المنهج الإلحادى في بلادنا.

ولماذا الحرص على أن نربي عليه أبناءنا، ولماذا الإصرار على الالتزام بهذا المنهج الذي يزرع الشكوك ويثير الشبهات أمام الناشئة.

أليس من الحكمة أن نربي أبناءنا بمنهج نربط به بين الكون وخالقه لنحق خلاله هذه الوظائف التي نبهنا إليها القرآن الكريم.

الوظيفة الثالثة: دلالته على عالم الغيب:

إن وجود هذا الكون شاهد على عالم الغيب بدأ ونهاية ودليل عليه، وهو دليل على النشأة الآخرة، ذلك أن هذا العالم الحسي قد ثبت وجوده بحكم الواقع والمشاهده، ولا شك في أن الواقع دليل عملي أكثر يقينا من الدليل النظري بحكم التجربة والمشاهدة، ولا شك أن هذا العالم لم يخلق نفسه، ولم يوجد من غير خالق، والذي أوجده أول مرة يكون قادرًا على إعادة خلقه مرة ثانية، وإذا أخبرنا القرآن أن الله سوف يعيد الخلق مرة ثانية، فإنه بذلك يكون صادقًا، وليس في منطق العقل دليل على امتناع ذلك بل إن العقل يقبل ذلك ويؤيده من خلال مشاهدته لهذا العالم الحسي، ومن خلال المشاهدات اليومية لأفعال البشر- ولله المثل الأعلى- فإنك إذا رأيت إنسانًا يحمل أثقالاً، مائة كيلو جرام مثلاً. ثم جاء من يحدثك أنه رأى نفس الشخص يحمل ٥٠ كيلو جرامًا فإن العقل يكون أكثر أمانًا لقبول هذا الخبر وتصديقه، لأن مشاهدتك له وهو يحمل مائة كيلو خير دليل على صدق من حدثك بأنه يحمل ٥٠ كيلو أقل مما رأيته أنت بنفسك، وهذا يعني أن عوامل صدق الخبر أكثر.

ومعلوم أن الخلق الأول كان من العدم، والخلق الثاني لا يكون من العدم

وإنما يكون من وجود، ذلك أن الإنسان إذا مات تحلل جسده وعاد إلى أصله الترابي، فالجسد الإنساني ليس غريبًا على التراب وإنما هو منه وإليه كما قال سبحانه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، ولما كان الخلق أول مرة من العدم كان أكثر صعوبة في منطق العقل من الخلق الثاني، وبالتالي يكون الخلق الثاني أهون وأيسر من باب أولى. فالذي يخلق من عدم أولى به أن يكون قادرًا على الخلق من الوجود، والأمر في ذلك يشبه تمامًا المثال الذي سقناه لتوضيح الموقف من عالم الشهادة.

وهذا ما نبه إليه القرآن الكريم في أكثر من آية حيث نبهنا إلى أن الخلق الثاني أهون على الله من الخلق الأول، لأن بدء الخلق كان من العدم وإعادة خلقه يكون من وجود، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

وهذا ما يسمى بلغة المنطق بقياس الأولى وقد أشرنا إليه تفصيلاً في دراسات لنا سابقة، وهو يعني ثبوت الحكم لشيء بناء على ثبوته لما هو أولى بالثبوت منه، وقد أشرنا إلى المثال التوضيحي له من قبل، وهو قياس برهاني عقلاً ونقلاً اشار إليه القرآن في كثير من آياته، قال تعالى مستدلا على البعث: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ، الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ، أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٨: ٨١].

تأمل معي هذه الآية الكريمة تجدها تنطلق من عالم الشهادة باعتباره

واقعًا محسوسًا لا يمكن إنكاره، وتستدل به على الخلق الثاني. وقد تضمنت الآية عددًا من الأدلة تعتمد كلها على عالم الشهادة كركيزة أساسية للاستدلال على البعث.

الدليل الأول: ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ** ﴾ وسبب نزول الآية أن أحد امن المشركين قد أنكر البعث وقال للرسول وقد أمسك قطعة عظم «رميمًا» بيديه يا محمد أترى أن الله يبعث هذه العظم بعدما أصبحت رميمًا. فقال له الرسول نعم. يبعثها ويبعثك ويدخلك النار. ونزلت الآية لتقول له كيف تضرب لله الأمثال بهذه القطعة وتنسى أنك كنت عدمًا فأصبحت موجودًا، أليس الذي أوجدك من العدم أول مرة قادرًا على إعادتك مرة ثانية... ألا تكون الإعادة أهون من الخلق الأول....؟

الدليل الثاني: ثم جاءت الآية الثانية بدليل أكثر عمومًا فقال للرسول: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ ليفهم المخاطب أن الذي تكفل بالخلق الأول من العدم قادر على الخلق الثاني من وجود.

الدليل الثالث: ثم ساقت الآية دليلاً علميًا يحتاج إلى مستوى أرقى من التعقل فقال سبحانه وتعالى: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ**﴾ ومن المعلوم أن من خصائص الشجر الأخضر أنه رطب بارد، وأن من خصائص النار حارة يابسة، وخصائص الخضرة على النقيض من خصائص النار، وفي لغة العقل أن الجمع بين النقيضين محال، والآية تشير إلى أن الله تعالى قد خلق النار من الشجر الأخضر، أي خلقها من نقيضها. وإذا كان الله قد خلق النار من نقيضها فإنه يكون قادرًا على إعادة خلق الشيء من أصله. بل إن ذلك أولى في القبول وأدعى للصدق.. وهذه الأدلة كلها تنطلق من عالم الشهادة وتتخذ منه أساسًا ومرتكزًا لإثبات عالم

الغيب، ولست هنا في مقام الاستدلال على البعث أو الاستدلال على عالم الغيب وإنما قصدنا الأول التنبيه إلى إحدى وظائف عالم الشهادة التي غاب عنها البعض وراح يتحدث عن عالم الغيب بأنه حديث خرافة وأن المؤمنين به رافضون لمنطق العقل ويقودون القافلة إلى الوراء.... و.... الخ ما يثيره دعاة التنوير الغربي في مجتمعنا .. ولو أداروا بعقولهم فيما حولهم وتأملوا الموقف بعين الإنصاف لعلموا أن حديثهم في ذلك عين الخرافة والجهل.

الوظيفة الرابعة: الكون مسخر للإنسان:

إن هذا الكون بعالميه الأرض والعلوي مسخر لخدمة الإنسان وتحقيق مصالحه، قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾ ، ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾ ، ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾ [إبراهيم: ٣٣، ٣٤]. ﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً**﴾ [النحل: ١٤].

وقانون التسخير هذا عام وشامل لكل ما في السموات والأرض والليل والنهار مسخرات بإذنه سبحانه، أرسل الرياح مبشرات، وأرسل الرياح لواقح، فأنزلنا من السماء ماء. وجعلها حاملة للماء لتنقله إلى الأرض الجرز لتخرج به الزرع مختلفاً ألوانه ومظاهر التسخير واضحة في كل جزئيات الكون لا تحتاج إلى بيان وكان من رحمة الله بالإنسان أن جعل الكون قابلاً لفعل الإنسان ومنفعلاً بإرادته منه، قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ**﴾ [الملك: ١٥].

قال تعالى: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا**﴾، (**وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتًا**﴾ ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا**﴾.

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ، وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ، هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ، يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ٥- ١٣].

والانتفاع بهذا الكون ليس خاصًا بالمؤمن دون الكافر وإنما هو نفع عام لكل بني البشر المؤمن والكافر على سواء فهو محايد لا يجامل أحدًا ولا يتأبى على من أكتشف قوانينه ولو كان كافرًا ولذلك تجد خطاب القرآن الكريم في هذه الآيات موجهًا إلى الناس عامة بلفظ ﴿لكُم﴾، ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا﴾، ﴿سَخَّرَ لَكُمُ﴾ وصيغة الخطاب هذه ﴿لكُم﴾ تدل على أن التسخير مقصود وهو إحدى وظائف الكون المطلوبة، والتي ينبغي أن يتنافس حول تحقيقها المتنافسون لارتباط هذه الوظيفة بالوظيفتين السابقتين ارتباطًا وثيقًا، فهي بمثابة المقدمة لهما، ذلك أن تسخير الكون للإنسان لن يتم إلا إذا استطاع الإنسان أن يعمل عقله في أشياء الكون من سمائه إلى أرضه كاشفًا عن قوانينه، باحثًا في ظواهره وجودًا وعدمًا، وهذا كله هو مفتاح الطريق إلى معرفة آثار الله في كونه، ومعرفة آثار صفاته وبالتالي فإن ذلك كله يقود العالم المتأمل إلى الإيمان بأن هذا الكون بما فيه من براهين بينات تبهر العقول آية من آيات خالقه سبحانه.

ولذلك فقد نبه القرآن الكريم في العديد من آياته أن هذه الآيات الكونية المسخرة لخدمة الإنسان/ يجد الإنسان فيها خلال انتفاعه بها وتسخيره لها

كثيرًا من الآيات الناطقة بصفات خالقها الدالة عليه، وينبغي على الإنسان أن يتنبه لها لأنها ليست بعيدة عنه، بل إنها حوله مصاحبة له في غدوه ورواحه، وفي صباحه ومسائه، وفي نومه ويقظته.

فمن أراد الانتفاع بالماء فعليه التعرف على قوانينه، متى يتحول إلى جماد، ومتى يتحول إلى بخار، ومتى يستخدمه لتوليد الطاقة.

ومن أراد أن ينتفع بالرياح أو الهواء فعله أن يتعرف على قوانينها ومتى يستطيع تسخيرها والإفادة منها.

ومن أراد الانتفاع بالأرض وتربتها فعليه التعرف على خصائص التربة ومتى تكون صالحة للإنبات ومتى لا تكون.

وكذلك عالم الأفلاك، وعالم الطب، عالم الحشرات... الخ، والتسخير لا يتم إلا بمعرفة هذه القوانين وإعمالها، وهذا هو مضمار السبق الحضاري بين الأمم، وميدان السبق والتنافس بين الشعوب وهذه القوانين التي يتم بها تسخير العالم لا تتأبى على من تعرف عليها مؤمنًا كان أو كافرًا، لأن ذلك مما أودعه الله في الكون وجعله ذلولاً لمن توصل إلى اكتشافه وتعرف عليه. ويستطيع بذلك أن يخضع الكون كله لصالحه فيفيد منه وينتفع بخبراته، وينافس غيره من أمم الأرض.

حول قانون السببية:

وهناك نقطة على جانب كبير من الأهمية نود الإشارة إليها في هذا المقام ذلك أنه ينبغي ألا يظن المرء أنه حين يكتشف القوانين ويتوصل إلى معرفة العلاقة بين ظواهر الكون انه بذلك قد استقل بهذا الكون أو أن هذه القوانين التي اكتشفها تكفي وحدها في الاستقلال بالفعل في هذا الكون أو انها

تعمل أثرها منعزلة عن خالق الكون. لا... إن هناك بعدًا آخر على درجة كبيرة من الأهمية ينبغي ملاحظته، فقد نعرف القانون ونكتشف السبب المؤثر الفاعل، ثم نحاول أن نضعه حيث يؤثر في محله القابل للأثر. فنجد أن هذا المحل معطلا غير قابل للأثر فلا ينفعل ولا يتأثر، وبالتالي لا يؤثر القانون ويتعطل الأثر وقد يكون له أيضًا ضد يمانعه، ذلك أن السبب ليس مستقلاً بالتأثير منفردًا به، بل لابد له من أسباب تعاونه، فإذا لم تتم معاونة الأسباب الأخرى المشاركة وتنتفي الأضداد والعوائق المانعة لم يحصل المسبب، فالمطر وحده لا ينبت النبات بل لابد أن تنضم إليه عوامل أخرى لا تقل في تأثيرها عن المطر، فلابد من اعتدال الهواء، وكون التربة صالحة للإنبات فإذا نزل المطر وبذر النبات في أرض جدباء أو في صخرة صماء فمن العبث أن ننتظر إنبات الزرع، لأن التأثير هنا منتف لانتفاء المحل القابل للأثر، والزرع لا ينمو ولا يؤتي ثماره إلا بتعهد صاحبه له وصرف الآفات المضرة عنه والطعام لا يغذي الإنسان منفردًا بل لابد من قابلية الجسم لنوع الطعام وسلامة الأعضاء والقوى المنبثة في الجوارح وكل ذلك لا يفيد شيئًا ما لم يكن الجسم قد صرفت عنه الآفات والعوائق. فلابد من انتفاء الموانع ووجود الأسباب المعاونة، وكل سبب معين أو شرط مطلوب تحققه في حدوث المسبب بقدر الحاجة إلى تحصيله ومعاونته، وليس في الوجود سبب تام مقتض للفعل بذاته مستقل عن الأسباب المعاونة، وإذا كان بعض الباحثين يسمى الأسباب المساعدة شروطًا والبعض يسميها مقتضيات فإن هذا نزاع لفظي لا يلتفت إليه هنا لأن المقصود هنا هو بيان أن المسبب لا يحصل إلا بتوفر هذه العوامل المساعدة لسببه ولا مشاحة في تسميتها سببًا أو شرطًا، وينبغي ألا يصرف نظرنا هذا الخلاف اللفظي عن دور هذه الأسباب

المساعدة في التأثير في الفعل وتوقف الفعل عليها. وحينئذ فلابد في كل سبب مؤثر من توفر ثلاثة أمور:

١- وجود المقتضي التام للفعل.

٢- توفر الأسباب المساعدة أو الشروط الخارجية.

٣- انتفاء المانع العائق.

فإذا تحققت هذه الشروط الثلاثة في السبب فلابد أن يوجد المسبب، إما أن يكون في الوجود علة تامة تستلزم معلولها، أو يكون في الوجود سبب تام مستقل بالتأثير فهذا قول باطل يكذبه الواقع، ولا فرق في ذلك بين الأسباب الطبيعية في الكون والأسباب الإنسانية في حركة المجتمع فقد يكون هناك عائق أقوى من السبب فيمنعه عن التأثير، وهذا ما عبر عنه القدماء في قولهم إن السبب لا يستقل بالتأثير بل لابد من ارتفاع الموانع التي تعوق السبب عن التأثير في المسبب، وهذا الموانع منها ما نعلمه ومنها ما لا نعلمه وهي كلها بيد الله سبحانه وتعالى فهو سبحانه المسبب الأول، فهو الذي يجعل السبب مؤثرًا وفي نفس الوقت يجعل المحل غير قابل للأثر فلا ينفعل بالسبب ولا يتأثر به. وهذه قضية ينبغي أن يتنبه لها المرء حتى لا يصاب بالغرور العقلي وحتى لا يقطع الصلة بين الكون وخالقه أو يفصل بين الأسباب ومسبب الأسباب فهو وحده سبحانه له الخلق وله الأمر، فعلى المرء أن يبحث ويكتشف ويعمل عقله وفي نفس الوقت يكون قلبه معلقًا بالخالق والمسبب الأول يستمد منه العون والتوفيق ولقد لفت القرآن نظرًا لذلك قال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ، أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ، أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ، نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ، أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ، أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ، لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ

تَفَكَّهُونَ، إِنَّا لَمُغْرَمُونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ، أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ، أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ، لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ، أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ، أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ، نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٧٣].

هذه الإشارات القرآنية توجه نظرنا إلى ضرورة ربط الكون بخالقه بدء ونهاية لنعلم أن الذي خلق هو الذي يحفظ على الكون نظامه، وهو الذي ﴿يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ﴾ [فاطر: ٤١].

وحين نحاول دراسة الكون وقوانين تسخيره بعيدًا أو منفصلاً عن خالقه فإننا بذلك نكون قد أبطلنا الوظيفتين السابقتين للكون، كونه آية دالة على خالقه وكونه مرآة لصفات الخالق، وحينئذ لا يجد الباحث أمامه إلا القول بالعبثية المطلقة أو الصدفة العشواء وتنتفي الغائية والحكمة وهذا ما فعله الماديون في بحوثهم الكونية، لقد بتروا الصلة تمامًا بين الكون وخالقه، وأصبح العالم عندهم مادة فاعلة ومادة منفعلة وليس وراء ذلك فاعل حكيم ولا لخلق الكون غاية مقصودة.

إن تحقيق الوظائف الكونية السابقة هدف أساسي من أهداف المعرفة بالكون، وغاية مقصودة للشارع، أمر بها القرآن وكلف بها الإنسان، فلابد أن يكون الكون موظفًا بواسطة الإنسان لتحقيق هذه الأهداف الكبرى:

١- إنه آية دالة على الخالق.

٢- إنه مرآة تنعكس على صفحتها صفات الخالق وآثار صفاته.

٣- إنه دليل على عالم الغيب.

٤- إنه مسخر لخدمة الإنسان.

وهذه الوظائف الكبرى لا تتحقق واحدة منها إلا بالعلم المؤمن وبمجهود العلماء المؤمنين.

والله من وراء القصد

۞۞۞۞